﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾ [مريم: 61 - 63]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

تثبيت التَّائب بتفصيل الجزاء له

لَمَّا أخبر تعالى عنِ الخَلْفِ الرّديء بالخيبة، وفتح لهم باب التّوبة، وأغراهم بدخول الجنّة، شرعَ في بيانِ وتفصيل هذا الجزاء؛ إمعانًا في نصيحتهم وحرصًا على استنهاضِ همَمِهم إلى الإيمان والثّبات على نَهْجِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَدۡنٍ﴾: (عدن) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على الإقامَةِ[1]، قالَ الخليلُ: العَدْنُ: إقامَةُ الإبِلِ في الحَمضِ خاصَّةً، تَقولُ: عَدَنَتِ الإبِلُ تَعْدِنُ عَدْنًا[2]، وعَدَنَ الرَّجلُ بالمَكانِ، إذا أَقامَ بِه، ومِنْه اشتقاق المَعْدِن، وهو المَكان الَّذي يثبت فيه النَّاس ولا يتحوّلون عَنهُ شتاءً ولا صيفًا، وعَدَنُ أبْيَنَ، نُسب إلى أبْيَنَ، وهو رجل مِن حِميَر؛ لِأَنَّهُ عَدَنَ بها، أَي: أَقامَ بها، وجنّة عَدْنٍ، أَي: دار مُقام[3]، والمقصودُ بـ﴿عَدۡنٍ﴾ في الآيةِ: الخُلْدُ والإقامَةُ، أَيْ: جَنَّاتِ خُلْدٍ[4].

2) ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾: (غيب) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَستُّرِ الشَّيءِ عَنِ العُيونِ، ثُمَّ يُقاسُ، مِنْ ذلك الغَيْبُ: ما غابَ، مِمَّا لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ[5]، وكلُّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدن).
(2) الخليل، العين: (عدن).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (عدن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 136.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).

مكانٍ لا يُدْرَى ما فيه فهو غَيْبٌ، وكذلكَ المَوْضِعُ الَّذي لا يُدْرَى ما وراءَه، وجمعُهُ: غيوبٌ[1]، ويُقالُ للشَّيءِ: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنَّاس لا باللّه تعالى، فإنَّه لا يغيب عنه شيءٌ، كما لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذرَّة في السَّموات ولا في الأرض[2]، والغَيْبُ ضِدُّ الحُضورِ وضِدُّ المُشاهَدَةِ، والغَيْبَةُ: مِنَ الغَيْبوبةِ، والغِيْبةُ: مِنَ الاغْتيابِ[3]، والمقصودُ بالغَيبِ في الآية: ما خَفيَ وغابَ عن عِلْمِ النَّاسِ، واسْتأثَرَ اللّه بِعِلْمِه.

3) ﴿مَأْتِيًّا﴾: أصلُ الإتيان: مَجيءٌ بسهولة، ومنه قيل للسَّيل المارّ على وجهه: أَتيٌّ وأَتاويٌّ، وكَذَلِكَ رجلٌ أتيٌّ وأتاويّ: غَريب[4]، والإتيان: قد يُقالُ للمَجيءِ بالذَّات وبالأَمر والتَّدبير، ويُقالُ في الخير، وفي الشَّرِّ، وفي الأَعيان، وفي الأَعراض، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النّحل: 26]، ﴿أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 40][5]، والمَأْتَى: الموضع الَّذي تَأتي فيه صاحبَك أَو يَأْتي مِنْهُ، وأتيتُ الحاجةَ مَن مأتاتِها، إذا جِئْتها من وجهها[6]، والمقصودُ بالمأْتيِّ في الآية: الَّذي يَأْتيه غَيْرُهُ[7].

4) ﴿لَغْوًا﴾: (لغو) أَصْلٌ يَدُلُّ على اللَّهَجِ بالشَّيْءِ، يُقال: لَغيَ بالأَمرِ، إذا لَهجَ به، ويُقالُ: إنَّ اشْتِقاقَ اللُّغَةِ مِنْهُ، أَيْ: يَلْهَجُ صاحِبُها بِها[8]، واللَّغْو، واللَّغا: السَّقْطُ وما لا يعْتد به من كَلام وغَيره، ولا يحصل مِنْهُ على فائِدَة ولا نفع[9]، واللَّغْو أيضًا: النُّطق، يُقالُ: هَذِه لُغَتُهم الَّتي يَلْغون بِها، أَي: يَنْطِقون[10]، واللَّاغيَةُ: اللّغْوُ، قال تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾ [الغاشية: 11]، أي: كلمةً ذاتَ لَغْوٍ[11]، والمقصودُ باللَّغْوِ في الآية: فُضولُ الكلام، وما لا طائلَ تَحْتَهُ.

5) ﴿سَلَـٰمًا﴾: (سلم) أَصْلٌ يدُلُّ على الصِّحَّةِ والعافيَةِ[12]، ومنه السَّلام: وهو أَنْ يَسْلَمَ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غيب).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (غيب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غيب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أتي).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (أتي)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 43.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أتي).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 137.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لغو).
(9) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن سيده، المحكم: (لغو).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (لغو).
(11) الجوهريّ، الصّحاح: (لغو).
(12) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سلم).

الإنسانُ مِنَ العاهَةِ والأَذَى، واللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ هو السَّلامُ؛ لِسَلامَتِه مِمَّا يَلْحَقُ المَخْلوقينَ مِنَ العَيْبِ والنَّقْصِ والفَناءِ، ومِنْهُ قيلَ لِلْجَنَّةِ: دارُ السَّلامِ؛ لأَنها دارُ السَّلامةِ مِنَ الآفاتِ، وقولُ النَّاسِ: السَّلامُ عليكم، أي: السَّلامةُ مِنَ اللهِ عليكم[1]، واسْتُعْمِلَ السَّلامُ عِنْدَ اللِّقاءِ إيذانًا بِتَأْمينِ المَرْءِ مُلاقيَهُ، وأَنَّهُ لا يُضْمِرُ لَهُ سوءًا، ثُمَّ شاعَ فصارَ قَوْلًا عِنْدَ اللِّقاءِ لِلْإِكْرامِ[2]، وحقيقة السَّلام في الآية: التَّحيَّة، والمُرادُ بها: تحيَّةُ المَلائكةِ لَهُم في كلِّ الأوقات[3].

6) ﴿بُكْرَةً﴾: (بكر) أَصْلٌ يدُلُّ على أَوَّلِ الشَّيْءِ وبَدْئه، ومنه: البُكْرَةُ وهيَ الغَداةُ، والجَمعُ: البُكَرُ، والتَّبْكيرُ والبُكورُ والابْتِكارُ المُضيُّ في ذلكَ الوقْتِ[4]، والإبكارُ: اسْم البُكْرة، كالإصباح، هَذا قَول أهل اللُّغَة، وعِنْد ابن سيده: أَنّه مصدر أَبْكَرَ[5]، وهو الدُّخول في ذَلِك الوقْت، ويُقال: باكَرْتُ الشَّيْء، إِذا بكَّرْتَ لَهُ[6]، والبُكْرَة: أوّل النَّهار، واشْتُقَّ مِن لفظه لفظُ الفِعل، فقيل: بَكَرَ فلانٌ بُكورًا: إذا خرج بُكْرَةً، والبَكور: المُبالِغ في البُكرة، وتصوَّر منها معنى التَّعجيل لتقدُّمها على سائر أوقات النَّهار، فقيل لكلِّ مُتعجِّلٍ في أمرٍ: بِكْر[7]، والمُرادُ بالبُكرةِ في الآية: النِّصْفُ الأوَّلُ مِنَ النَّهارِ[8].

7) ﴿وَعَشِيًّا﴾: (عشو) أَصْلٌ يَدُلُّ على ظَلامٍ وقِلَّةِ وُضوحٍ في الشَّيْءِ، مِنْ ذَلِكَ العِشاءُ، وهو أَوَّلُ ظَلامِ اللَّيْلِ، وعَشْواءُ اللَّيْلِ: ظُلْمَتُهُ[9]، والعَشيُّ، بِغَيْرِ هاءٍ، آخِرُ النَّهارِ، فإذا قُلْتَ: عَشيَّة، فهو ليوْم واحدٍ، يُقالُ: لَقيتُه عَشيَّةَ يَوْم كَذا وكَذا[10]، وقيلَ: العَشيُّ والعَشيَّةُ مِنْ صلاةِ المَغْرِبِ إِلَى العَتَمَة[11]، وحقيقةُ العَشيِّ في الآية: النِّصْفُ الأَخيرُ، أي: مِن آخِرِ النَّهارِ إِلى ابْتِداءِ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ[12].

(1) الخليل، العين: (سلم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 89.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 23.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بكر).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم: (بكر).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بكر).
(7) الرّاغب، المفردات: (بكر).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عشو).
(10) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عشو).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (عشو).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.

8) ﴿نُورِثُ﴾: أصلُ (ورث): كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، هيَ الوِرْثُ، والميراثُ أَصْلُهُ الواوُ، وهو أَنْ يكونَ الشَّيءُ لِقَوْمٍ ثُمَّ يَصيرَ إلى آخَرينَ بِنَسَبٍ أَوْ سَبَبٍ[1]، يُقالُ: ورِثَ أباهُ، يَرِثُه، إِرْثًا، فهو وريثٌ، أي: صارَ إِلَيْه مُلْكُهُ بعد مَوْتِه، فالإيراثُ: الإبقاءُ للشَّيء يورِثُ، أي: يُبقي ميراثًا، والتُّراثُ: تاؤه واوٌ، ولا يُجْمَعُ كما يُجْمَعُ الميراث، والإرثُ: أَلِفُه واوٌ، لكنَّها لَمَّا كُسِرَتْ هُمِزَتْ بلُغَة مَن يَهْمِز الوِسادَ والوِعاء[2]، والمراد بقوله: ﴿نُورِثُ﴾ في الآية: نَجْعَلُ وارِثًا، أَيْ: نُعْطي الإِرْثَ[3].

9) ﴿تَقِيًّا﴾: (وقى): كلمةٌ واحِدَةٌ تَدُلُّ على دَفْعِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ بِغَيْرِه، يُقالُ: وقَى نَفْسَهُ مِنَ العَدوِّ بِسِلاحِه، أي: دَفَعَهُ به، والوِقايَةُ: ما يَقي الشَّيءَ، واتَّقِ اللّه: تَوقَّهُ، أَي: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايَةِ[4]، والاِتِّقاءُ: تَكَلُّفُ الوِقايَةِ، وهيَ الصَّوْنُ والدَّفْعُ[5]، والتَّقْوَى: اتِّخاذُ الوِقايَةِ والحِمايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، والتَّوقّي: الحَذَرُ، والتَّقيُّ: المُتَّقي، وهو المُفْرِطُ في الصّيانة[6]، والمُرادُ بالتَّقي في الآية: فعيلٌ بِمَعْنَى مُفْعِلٍ، مِن اتَّقَى إذا اتَّصَفَ بِالتَّقْوى، وهيَ تَجَنُّبُ ما يُخالِفُ الدّينَ[7].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الجنَّةُ حقٌّ خالصٌ يَرِثُه ويتملَّكُه العِبادُ الأتقياء

معنى قولِ الحَقِّ سبحانه: يدخُلُ أولئك التَّائبونَ بساتينَ إقامةٍ دائمةٍ قد وعَد الرَّحمنُ عِبادَه المؤمنينَ أن يَدخُلوها في الآخِرة، فآمنوا بذلك، والحالُ أنَّهم لم يَرَوها في الدُّنيا، وسيأتي المُؤمِنونَ المُطيعونَ، ويَصيرونَ إلى اللّه، وينالونَ ما وُعِدوا به، فيُدخِلُهم جنَّتَه؛ تحقيقًا لوعدِه، لا يَسمَعُ أهلُ الجنَّةِ فيها باطِلًا وفُحشًا وكَلامًا لا ينفَعُهم،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(2) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ورث).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 136.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقى).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 393.
(6) الجوهريّ، الصّحاح، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (وقى).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 76.

ولكنْ يَسمَعونَ فيها ما يَسُرُّهم مِنَ الأقوالِ والأصواتِ السَّالمةِ مِن كُلِّ عَيبٍ، مِثْلَ تحيَّةِ اللّه وملائكته لهم، وتسليمِ بعضِهم على بعضٍ، ولهم رِزقُهم فيها مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ وما يَشتَهونَ في كُلِّ يَومٍ، في قَدرِ وقتِ البُكرةِ ووقتِ العَشيِّ مِن أيَّامِ الدُّنيا، هذه الجنَّةُ العاليةُ القَدرِ التي وصَفْنا بهذه الصِّفاتِ العظيمةِ، نُنْزِلُها ونُعْطيها مَن كان مِن عبادِنا مُتَّقيًا لعذابِ اللّه، بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّة فصل جملة: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ عن سابقتها:

فصلتْ جملة: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾؛ لوقوعها بدلًا مِنَ الجنّة في قوله: ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ كأنّه قيل: (يدخلون جنَّات عدن) على نيّة تكرار العامل، والبدليّة من موجبات الفَصْل.

التوجيه النحويُّ والبيانيُّ في قوله: ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ و﴿جَنَّٰتِ﴾:

ما من جَنّة إلَّا وهي جنّةُ عدن

﴿جَنَّٰتِ﴾ في قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ بدلٌ مِنَ الجنةِ في قوله: ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وجيء بصيغة الجمع ﴿جَنَّٰتِ﴾ مع أنّ المبْدَل منه مفرد؛ لأنّه يشتمل على جنَّاتٍ كثيرة، وهو بدل مطابِقٌ وليس بدلَ اشتمالٍ؛ لأنّ الجنّة بالإفراد اسمُ جنسٍ له أفرادٌ كثيرة عُبِّر عنها بالجمع ﴿جَنَّٰتِ﴾[2]، والأصلُ والظَّاهرُ التّعبيرُ بالجمع في الموضع الأوّل: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، ولكنَّ القرآن عبَّر بالمُفرد؛ للدّلالة على خصوص نعيم هؤلاء، فالشّيء الخاصّ يكون قليلًا ومميزًا؛ وللدّلالة على حصولِ الأمانِ النّفسيّ الدَّاخليّ لَمَن تاب وآمن وعمل صالحًا؛ وهو في الجنات؛ لخلو نفسِه مِن ذلك وهو في الدّنيا؛ لما لاقاه مِن غربةٍ نفسيّةٍ أليمة؛ بسبب مخالفة نغمة المعصية الجماعيّة.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 576، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 126، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 497، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 466.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 136.

إيثارُ لفظ ﴿جَنَّتِ﴾ دون غيره:

الجنّات لها حَظٌّ مِن اسمها؛ لإخفاء نعيمِها

آثَرَ التّعبير بلفظ ﴿جَنَّتِ﴾ دونَ غيرها (كالحدائق والبساتين)؛ لأنّه أراد نوعًا مخصوصًا منها، وهو كلّ بستان ذي شجرٍ يَستُرُ بأشجاره الأرضَ[1]، ولأنّها مِن صفحاتِ الغيب المستورة، فناسبَ معناها رتْبَتَها في الخفاء الغيبيّ، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السّجدة: 17].

بلاغة ذِكْرِ القيد: ﴿عَدْنٍ﴾، والإضافة:

وصْفُ الجنّةِ بالعَدْن يدلّ على عدم تحوّلها وعدمِ تحوّل أهلها

الإضافة في قوله: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ يصِحّ فيها وجهان؛ **الأوّل:** أنّها مِن إضافة الموصوف إلى صفته، وأصلُه: (جنَّاتٌ عدْنٌ)، أي: إقامةٌ وخُلدٌ، وغرضُ الإضافة مِن جهة اللّفظ: التّخفّف مِنَ التّنوين، ومِن جهة المعنى: المبالغةُ بجَعْلِ الخُلْدِ مُلابِسًا للجنَّاتِ، مُختَصًّا بها، فهما كالشّيء الواحد؛ لأنّ الموصوفَ وصِفتَه متلابسان لا ينفكّان، والتّنبيه على زيادة الفضل ومدحِ الجنَّات؛ لأنّ الشّيء إذا أُضيفَ للخُلود فهو ممدوح، **والثّاني:** أن يكون مِن حَذْف الموصوفِ وإقامةِ صفتِه مقامَه، وأصلُه: (جنَّات جنّةِ عدنٍ)، والأوّل تخريجُ الكوفيين، والثّاني: تخريج البصريين[2].

بلاغة الإدماج في جملة الصّلة:

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ إدماجٌ لتبشير المؤمنين السّابقين في أثناء وعْدِ المَدْعوّين إلى الإيمان بقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾[3]، فإنّ التّوبة تُسوّي التّائبَ ذي السّوابق بالطّائع ابتداءً.

دلالة التّعريف بالصّلة:

الجملة الموصولة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ صفةٌ

(1) الرّاغب، المفردات: (جن).
(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 10/ 279.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 136.

لقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾، وأتى بالموصول ﴿ٱلَّتِي﴾ ليتوسّل به إلى وصف المعرفة بالجملة، فإنّ لفظ ﴿جَنَّٰتِ﴾ في حُكم المعرفة لإضافته، وأيضًا: جملة الموصول: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ جاءت بالموصول الخاصّ ﴿ٱلَّتِي﴾، فأفاد العَهْديّة، والإخبار بما هو معهودٌ عند السَّامع ومُتعيّنٌ لديه، وهو الجزاء الموعود[1]، فمضمونُ الصّلة أمرٌ معلوم مشهورٌ، وفيه تقريبٌ للخَلَف مِنَ السلَفِ؛ وهذا مدحٌ وشديدُ ترغيبٍ، والعِلْمُ بالصّلة وشهرتُها ليس بلازم أن يكون بالنّسبة للمخلوقين، وإنّما قد يكون بالنّسبة للّه ﷻ، والمعنى أنهم معروفون عنده تعالى، مشهورون في ساحة رضوانه وأوليائه.

أغلى الوعود ما كان في دائمٍ لا يتغيّر

نُكْتَةُ حذفِ عائد الصّلة:

حذفُ عائدِ الصّلة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ﴾ أي: التي وعدها؛ إيجازًا لوضوحه وعدمِ التباسه، وتفخيمًا للوعد بإطلاقه مِنَ الضّمير وإضافته للرّحمن، وهو تعظيمٌ للجنَّات أن يُقال عنها: وعد الرّحمن، فصارتِ الجنَّاتُ كأنّها الوعدُ كلُّه لا أنّها مندرجةٌ فيه فحسب، وهذا تفخيمٌ للجنَّات أيُّ تفخيم، وهو تقريبٌ شديدٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحًا لساحة الرّضا والأمن والأمان؛ تعويضًا لهم عمَّا لاقوه مِن غربة وهوان.

الجنّة هي الوعد الحقيقيّ الذي تتصاغَر بجانبه الوعود

دلالة التّعبير بصيغة الماضي:

مجيءُ الفعل بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، للدّلالة على أنّه عهدٌ كتبَه اللّهُ على نفسه في الأزل أن يجزيَ بالجنَّاتِ أهلَها، وفي هذا مزيدُ طمأنة لهم.

سَبَق القَدَر بالجنّة وأهلها والنَّار وأهلها

سِرّ إسناد الفعل ﴿وَعَدَ﴾ للاسم الجليل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

إسناد الفعل ﴿وَعَدَ﴾ للاسم الجليل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ إشارةً إلى أنّ

(1) فاضل السَّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 123.

الطّمعُ في رحمة اللّه مُؤذِنٌ بدخول الجنّة

هذا الوعد مِن آثار الرحمة التي كتبها على نفسه، كما أخبر بذلك فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، فهذا الوعد مِن جنس تلك الرّحمة.

دلالة العبوديّة، وبلاغة الإضافة في قوله: ﴿عِبَادَهُۥ﴾:

تُنال الجنّةُ بالرّحمة والعبوديّة

أُضيفَ العباد لضمير الجلالة؛ لتعريف العِباد وتشريفِهم بنسبتِهم في مقام المكافأة والجزاء إلى اللّه الذي هداهم وأكرمهم، وهو إلماحٌ إلى أنّهم استأهلوا هذا الجزاءَ بعبوديّتهم له سبحانَه، ولتقرير هذا المفهوم جاء المفعولُ به ﴿عِبَادَهُۥ﴾ اسمًا ظاهرًا؛ ليصفَهم بالعبوديّة، ويضيفَهم إلى نفسه، ولذا لم يقل: (التي وعدهم الرحمن بالغيب) على إضمار المفعول.

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾:

عبوديّةُ السِّرّ تبلّغ نعيمَ الغيبِ

الباء في قوله: ﴿وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ للظّرفيّة، أي: وعدَهم إيَّاها في الأزمنة الغائبة عنهم مِنَ الأزَلِ إلى الأجَل، أو للسّببيّة، أي: وعدهم إيَّاها بسبب إيمانهم بالغيب، فالكلام على حذف مضاف، أي: بإيمانِ الغيب، أو الباء للمُلابسة، أي: وعدًا مُلْتَبسًا بالغيب، أو مصاحبًا أو لصيقًا به[1]، أو الملابسة تعود على العباد لا على الوعد، أي: عبادًا بالغيب، يعبدون اللّهَ في السِّرّ، لهم حالٌ غائبةٌ عن سواهم في عبادة اللّه، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الملك: 12][2]، وإذا كانتِ الجنَّاتُ غيبًا فإنَّ هؤلاءِ السّلفَ لهؤلاءِ الخَلَف غيبٌ، وسوف تجمعهم الجنَّاتُ، وهذا تقريبٌ شديدٌ للخَلَف مِنَ السَّلَف؛ إبلاغًا في طلب التّوبة والإيمان والعمل الصَّالح.

فائدة التقييد بشبه الجملة في: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾:

قيَّد القرآنُ الكلامَ بشبه الجملة في قوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 272.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 279.

للدّلالة على أنّ الجنّاتِ جاهزةٌ مُهيَّأةٌ لهم، وإنْ كانت محجوبةً عنهم، ففي تغييبها مع جاهزيّتها تشويقٌ وتحبيبٌ وتحفيزٌ إلى إدراكها، وامتحانٌ بتصديق كلمة اللّه بالوعد مِن غير مشاهدةٍ وإدراك، ومدحٌ للمؤمنين السَّاعين إلى وعد اللّه، وهم غيبٌ عنه وهو غيبٌ عنهم؛ لأنّ الإيمان بالغيب أمدحُ ممَّا سواه.

الإيمان بالغيب هو الامتحان الفاصل

عِلَّة فصلِ جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ﴾:

جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ تعليلٌ لجملة: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾[1]، أي: هذا الجزاء حاصلٌ بقوّةِ أنّ وعدَ اللّه ثابتٌ حتميّ، فبينَ الآيتينِ كمالُ اتّصالٍ، فلذلك غاب العاطفُ، فلم يُقل: (وإنه كان وعده مأتيًا).

إذا وعدَكَ الكريمُ فأنتَ في ضمان

نُكْتَةُ التّوكيد بـ﴿إِنَّهُۥ﴾:

افتُتحت جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ بـ﴿إِنَّهُۥ﴾ لتأكيد مضمون الجملة، وربطِها التّعليليّ بمضمون الجملة قبلَها، وإغنائها عنِ الرّبط بالعطف.

حرفُ التّوكيد رابطٌ متعدّد المقاصد

توجيهُ عودِ الضّمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾:

الضّمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ يعود على ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ويصِحّ أن يكون الضّمير للشّأن؛ لأنّه مَقامُ تعظيمٍ وتفخيم[2]، وضميرُ الشّأنِ هو الأعلى والأبلغ سياقًا.

يتودَّد اللهُ إلى عباده بتوثيق وعْده جبْرًا لهم

دلالةُ مَجيء المُسنَد جملةً اسميّةً مُصَدَّرةً بفعل الكون:

التّعبير بفعل الكون في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾؛ للإيذان بتحَقّق الوقوع، أي: كان ذلك ﴿مَأۡتِيّٗا﴾ أي: يأتيه ما وعدَهُ إيَّاه لا محالة[3]، وتحقيق وقوع البشارة[4] بـ﴿كَانَ﴾ دفْعًا لتوهّم أنّ هذا

يُحَقِّق اللهُ وعودَهُ للنَّاس لئَلَّا يُفْتَنوا عنها عصمةً لهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 137.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 7/ 612.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 429.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 137.

الوعد كسائر الوعود التي يمكن أن تلحقها عوارضُ تُبَدِّلُها، أو حوائلُ تمنعها.

جناسُ الاشتقاق:

خيرُ الكلام ما صدر عن غير تكلّفٍ

بين لفظي: ﴿وَعَدَ﴾ و﴿وَعْدُهُۥ﴾ جناسُ اشتقاق، حيثُ اجتمع اللّفظان في أصل الجَذْر الاشتقاقيّ، فكلاهما مِنَ الجذر الثّلاثيّ: (وعَدَ)، وهو جناسٌ غيرُ تامّ بين فعلٍ واسم، وهو مُحَسّن لفظيّ بديعيّ مِن تمام بلاغة التّركيب، يورَد من غير تكلّف، وصورةُ العلاقةِ: أن مِثْلَ وعْدِ الرحمن فخمٌ عظيمٌ مأتيٌّ لا محالة؛ فإن ذلك مِن مظاهر رحمته؛ ولهذا لم تأتِ الواو قبل هذه الجملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾.

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿مَأْتِيًّا﴾:

ينبغي أن يُهرَع النّاسُ ويَفِرّوا إلى موعود الله

استُعيرَ الإتيان في قوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾؛ لحصول المطلوب المُتَرقَّب، تشبيهًا لمن يُحَصِّل الشّيءَ بعد أن سعى لتحصيله، بِمَن مَشَى إلى مكانٍ حتّى أتاه، وتشبيهًا للشّيء المُحصَّل بالمكان المقصود، ففي قوله: ﴿مَأْتِيًّا﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، اقتُصِرَ مِن أجزائها على إحدى الهيئتين، وهي تستلزم الهيئةَ الأُخرى؛ لأنّ المَأتيَّ لا بُدَّ له مِنْ آتٍ[1].

دلالة صيغة اسم المفعول ﴿مَأْتِيًّا﴾ دون غيرها:

وعدُ الله ينتظر طُلّابَه

الإخبار عنِ الوعد بكونه: ﴿مَأْتِيًّا﴾ بصيغة المفعول، دلّ على أنّ وعدَ اللّه ثابتٌ مُحقَّقٌ كائنٌ في مكانه، فيُؤتَى إليه ويُسْعَى إلى تحصيله، فهو في موضع المفعول، والحقّ أنّ الوعد متمكّن والنّاس همُ الملتحِقون به، ولذا كانت صياغتُه على اسم المفعول أدعى للتّحفيز عليه، والاستنهاض إليه، فمعنى ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي: مطلوبًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 137.

مقصودًا ببلوغه مِنَ المُكلَّفين، وهذا أبلغ في الدّلالة على تحقّقه وإنجازه لهم، كأنّه قيل: هو مُنجَزٌ بالفعل مثبوتٌ لأهلِه، فلم يَبْقَ إلَّا أن يعملوا بأسباب الوصول إليه مِنَ الإيمان والتّوبة والعمل الصَّالح، ولا يخفى ما في هذا مِنَ الدّلالة على قِدَمِ الموعود ووجوده بالفعل، وأنّ الوعد به لا يتعلّق بإيجاده وإنشائه لهم، بل بتنجيزه وملابستهم له؛ لأنّه موجودٌ بالفعل، ولكن حَجَبَ عنِ اكتشافه أنّه غيْبٌ، ولذا سيق بعبارة الوعد، ولذا فُسِّر المفعول ﴿مَأْتِيًّا﴾ بـ (مقصودًا ومطلوبًا)[1]، (ومُنْجَزًا)[2].

و(آتيًا) بمعنى الفاعل، مبالغةً في أنّ الشّيء يَطلبُ مستحقّيه، كما هم يطلبونه؛ إشارةً إلى أنّ لثبوته صار مضمونًا كالشّيء الذي يحضُر عندكَ، فهو مجازٌ عن ذلك، لا أنّ معنى ﴿مَأْتِيًّا﴾ يُرادُ بها اسمُ الفاعل حقيقةً، فهذا على خلاف الأصل في الصّيغة والمعنى.

عِلَّة فصلِ جملة: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾ عن سابقتها:

استراحةُ الأسماعِ مِنَ اللّغو قطعةٌ مِنَ النّعيم

جملة: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ حاليّة مِن ﴿عِبَادَهُ﴾، وفُصِلتْ لأنّها جملة فعليّة فعلُها مضارع منفيّ، فيمتنع اقترانُها بالواو أو (قد)، ويصحّ أن تكون استئنافًا مقطوعًا ممَّا قبلَه[3]، فبعد أن ذكر وصفَ الجنَّات بأنّها ﴿عَدْنٍ﴾، انتقل لوصف أهلها فيها، ويصحّ أن تكون استئنافًا بيانيًّا، ولذلك فُصِلتْ.

دلالة نفي المضارع بـ﴿لَّا﴾:

انتفاء المضارع بـ﴿لَّا﴾ في قوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾، أفاد انتفاءَ ذلك عنهم فورَ دخولهمُ الجنةَ في الحال، واستمرارَ ذلك معهم في الاستقبال[4].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 12/ 226.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27.
(3) صافي، الجدول: 16/ 319.
(4) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 206.

إيثارُ لفظِ السّماع، دون غيره:

الاستماع يقع بقصد، ونفي السماع نفيٌ للوجود

نُكْتَةُ التّعبير بلفظ السّماع في قوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾، دون غيره مِنَ الألفاظ كالاستماع، مِن وجهين:

الأوّل: أنّ اللّغو صوتٌ مِنَ الأصوات ونوعٌ مِنَ الكلام، ولذا ناسبَه نفي السّماع.

الثّاني: أنّ نفي السّماع يدلّ على نفي الوجود، وأمَّا نفي الاستماع، فيدلّ على نفي قصدهم في الإصغاء للشّيء مع وجوده وحصوله، فنفيُ الأدنى: (السّماع) هو مناط تصوير حال الجنَّات، فكأنه الأصلُ فيه.

نُكْتَةُ تقديم شِبه الجملة على المفعول به:

للاهتمام والاختصاص والإسراع بمدح المَحَلّ

تقديم شِبه الجملة على المفعول به في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾؛ للاهتمام والاختصاص والإسراع بمدح المَحَلّ وهو (الجنّة) بتقديمه، لأنّه المقصود، ويصحّ أنْ يكون التّقديم دالًّا على الحصر، أي: (لا يسمعون فيها دون غيرها)، لأنّ في سائر الدّور والمحالّ لم يتنزّهوا عن سماع اللّغو.

دلالة تنكير ﴿لَغْوًا﴾:

اللّغو حقيرٌ قصير لا يدوم ولا ينفع

تنكير ﴿لَغْوًا﴾ للتّهوين والقِلّة، أي: أدنى شيءٍ منه غيرَ مسموعٍ لهم، لأنّه منتفٍ في وجوده أصلًا، وفيه معنى العموم، أي: لا يسمعون فيها لغوًا أيَّ لغوٍ؛ نظرًا إلى تنوّع اللّغو الذي كانوا يُؤذون به في الدّنيا.

معنى الاستثناء ودلالته:

خيرُ العيش ما كنتَ فيه سالِماً

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ يُحتمل فيه وجهان:

الأوّل: استثناء منقطع، على معنى أنّ السّلام من غير جنس اللّغو[1]، فتسليمُ الملائكة عليهم مِن شريف الكلام ونافِعِه، وكذا

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 6/ 222.

جميع ما يدخل فيه مِنَ الأقوال السَّالمة مِنَ الإيحاش والكدر، واللّغو مِن رَديء الكلام وهَدْرِه، وهذا الوجه هو الأبرُّ بحال المُحدَّثِ عنهم؛ لأنّ جعل السّلام مِن غير جنس اللّغو يستدعي في السّياقِ ما أوذيَ به مَن تاب وآمن وعمل صالحًا في الدّنيا، والجزاءُ في الآخرة ينظر إلى الأعمال والأحوال في الدّنيا، وهذا مِن سنن بيان الذّكر الحكيم.

الثّاني: استثناء متّصل، على أنّ المستثنَى مِن جنس المُستثنَى منه، وذلك على أحد وجهين؛ فإمّا أن يُراد باللّغو مطلقُ الكلام، من قولهم: لغا لغوًا، أي: تكلّم، فيكون الاستثناء متصلًا، أي: لا يسمعون فيها كلامًا إلَّا كلامًا يدُلُّ على السّلامة، أو سلامًا مِنَ اللّه أو من الملائكة أو من بعضهم على بعض[1]، وإمّا أنْ يُجعل السّلام بمعنى التّسليم عليهم، أو الدّعاء بالسّلامة لهم مِن جنس اللّغو، لأنّهم في غِنًى عنه، إذْ هم سالمون فعلًا، فيكون مِنَ الفضول واللّغو، ولكنّه استثناه لأنّ ذلك من إكرامهم والحفاوة بهم وهو من تمام النّعيم[2]، ولكن يَرِدُ على هذا الوجْه أنّ الدّعاء بالسّلامة إكرامٌ، والتّسليم تحيّةٌ، والإكرام والتّحيّة غرضٌ نافع، فالتحاقه باللّغو فيه نظر.

دلالة القَصْر في تركيب النّفي والاستثناء:

لا سلامَ على الحقيقة إلَّا في الجنّة

أفاد تركيب النّفي والاستثناء في قوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ قَصْرَ صفةٍ على موصوف، قَصَر الصّفة (السّلام) على الموصوف (المحلّ أو ذي المحلّ)، والقَصْر حقيقيّ؛ لأنّه لا دارَ في الآخرة تشترك مع الجنّة في هذا الوصف، ولذا فوصْفُ السّلام ثابتٌ لها منتفٍ عمَّا عداها، ولذا سمّيتْ (دار السّلام)، والقَصْر أيضًا تحقيقيّ يُطابق الواقع من غير تزيُّدٍ ولا مبالغة[3]، والغرضُ مِن

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 436.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 280.
(3) محمد أبو موسى، دلالات التّراكيب، ص: 39، 46.

أداء القَصْر بالنّفي والاستثناء تأكيدُ المعنى في نفوس العِباد الذين تابوا وآمنوا وعملوا صالحًا؛ كأنّهم في حُكم مُنكرِه؛ لأنّهم يُخاطَبون بذلك؛ وهم لا يزالون في الدَّار الدّنيا.

دلالة تنكير ﴿سَلَٰمًا﴾:

تنكير ﴿سَلَٰمًا﴾ للتّفخيم والتّعظيم والتّعميم، أي: سلامًا عظيمًا يستغرق أفرادَ السّلام ومظاهرَه كافّة، وهو بَرْدٌ على قلوب المُحَدّث عنهم.

علّة الوصل في قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ﴾:

جملة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا﴾ معطوفة على جملة الاستثناء قبلَها، وهي مِن باب عطف الخاصّ على العامّ؛ لأنّ حصول الرّزق مِن أخصّ أسباب السّلامة، ولذا جُمِعَ بينَهما بالعاطف[1].

حصول الرّزق مِن أخصّ أسباب السّلامة

نُكْتَةُ التّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ﴾:

جيءَ بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ﴾؛ للدّلالة على ثبات ذلك الرّزق ودوامه، فيفيد التّكرّر المُستمرّ، وهو أخصّ مِنَ التّكرّر المستفاد بالفعل المضارع وأكثر[2]، ولذا لم يقل: (يرزقون)، ونظمُ معنى الجملة في صورة الاسميّة دليلٌ قويٌّ على أنّ الرّزق الذي فيها أعمُّ مِن نفي سماع اللّغو، والاسميةُ أيضًا تنظرُ إلى وصف الخلود والدوام: ﴿عَدْنٍ﴾ للجنَّات، وذلك الأصلُ فيها، فالاسميّة هنا هي الأصل.

لا وجودَ في الجنّة لمعضلة الأرزاق والاكتراثِ لها

نُكْتَةُ تقديم شبه الجملة على المُسنَد إليه:

تقديم شبه الجملة على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ﴾ للاختصاص والحصر؛ عنايةً بهم ومبالغةً في تكريمهم[3]، أي: لهم خاصّةً لا لغيرهم، ولمَّا كانت ذواتهم هي المنوطة بالرّزق

الرّزق يأتي إلى أهل الجنّة، لا يسعون خلفَه كما الدّنيا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 227.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.

قُدِّمتْ مقرونةً برزْقِها، وفي التقديم أيضًا: إشعار بعظيم احتياجهم إلى هذا الرّزق، وأنّهم في شوق إليه، وأن منه ما هو عِوض عمَّا لاقوه في الدّنيا مِن بلاءات وغربة وآلام، وكأنّ لهم رزقًا خاصًّا بهم، وقد مكَّن ذلك إضافتُه إليهم: ﴿رِزْقُهُمْ﴾، فتناغى التقديم والإضافة.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿رِزْقُهُمْ﴾:

الاختصاص والإشعار بالتّوسعة والامتلاك

إضافةُ رزق إلى ضمير (هم) لزيادة الاختصاص[1]، وللإشعار بالتّوسعة والامتلاك، وهو مِن زيادة النّعيم، فالرّزق الذي هو مِنَ الله وُهبوه ومُلِّكوه حتّى صار منسوبًا إليهم، متمكِّنًا مِن حيازتهم، وهو كناية عنِ انتفاء الكُلْفةِ فيه مِن جميع الوجوه؛ إشارةً إلى أنّه ليس كسائر أرزاق الدنيا التي لا تخلو في تحصيلها مِنَ التّكلّف والحرج والكَدَر وعدمِ الخُلوص.

سِرّ تقديم شبه الجملة ﴿فِيهَا﴾ على (اللّغو)، دون (الرّزق):

تأنسُ النّفوسُ بما تَعرف

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾: المقصودُ المَحلُّ، وهو الجنّة محلّ الاهتمام، للإخبار عن خُلوّها مِنَ اللّغو، فالمحلّ هو الأصلُ، وخلوّها من اللّغو وصفٌ، والوصف يتلو الموصوف، ليبيّن أنّه كاملُ التّهيّؤ، تامُّ الإعداد لنُزلائه.

وأيضًا في التّقديم نُكْتَةُ القَصْر، وأنّ هذا الحُكم المذكور مقصورٌ على الجنّة فقط، وهو نفيُ اللّغو عنها دون غيرها؛ تعريضًا بأنّ غيرها مِنَ النُّزل مَليءٌ بالكُدورات والنّقائص.

ولمّا قال: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا﴾ أخّر شِبه الجملة ﴿فِيهَا﴾ عن (الرّزق)؛ لأنَّ الغرض استحضارُ المَرزوق وإكرامُه أوّلًا؛ لأنّه المقصودُ بمنافع المَحلّ الذي هو مرزوقٌ فيه، وقدّم ﴿رِزْقُهُمْ﴾ وأخّر ﴿فِيهَا﴾ حتّى يعلموا أن رزقهم المحبوب لهم في الدّنيا سينالون شِبْهَه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.

فائدة التقييد بشبه الجملة ﴿فِيهَا﴾:

لو جاءت الجملة ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا﴾ بدون: ﴿فِيهَا﴾ لَتُوُهِّمَ أنّ الرّزقَ هو عينُ الرّزق الذي يعهدونه في الدّنيا، وإنّما هو شِبْهُه لا عينُه، فلمَّا كان الرّزق مشاهدًا في الدُّنيا فقط، و﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ في الدّنيا فقط، أتى بقوله: ﴿فِيهَا﴾ احتراسًا، حتّى لا يُتَوهّمَ أنّه مِن جنس رزق الدُّنيا بل هو مقيّد بظرفيته للجنّة.

دلالة التّعبير بالظّرف: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، وترتيبُهما:

في الجنّة في كلّ وقتٍ رزقٌ، فلا تنقطع الأرزاق أبدًا

الجمع بين البُكْرَة والعشيّ كناية عنِ استغراق الزّمن، أي: لهم رزقُهم غيرُ محصورٍ ولا مُقَدّر، بل كلّما شاؤوا[1]، فالتّعبير بهما مِن باب التّمثيل بالعادة الغالبة، لإرادة الدّيمومة، كما تقول: أنا عند فلان صباحًا ومساءً وبكرةً وعشيًّا، تريد: أنّك دائمُ الحضور عنده، ولا تقصد الوقتين المعلومين، فليس في الجنّة بكرةٌ ولا عَشيّةٌ، ولكنّهم خوطِبوا بما يعقلون في الدُّنيا، لأنّ المُتنعِّم عند العرب مَن ضَمِنَ الغَداءَ والعَشاء[2]، فكنّى بذلك عن حصول رزقهم على أكمل الوجوه وأوفاها.

والتّنكير في قوله: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ للتّنويع، أي: هذا النّوع مِنَ الوقت في عموم الزّمن.

بلاغة الطّباق:

أهل الجنّة لا يُدبِّرون، ومِنَ النّعيم ألّا تُدَبِّر

بين لفظي: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ طِباقٌ بالإيجاب جرى بين ضِدَّين، فالبُكرة أوّلُ النّهار، والعَشيّ آخِرُه، وقيمةُ الطّباق في الدّلالة على معنى الاستيفاء والكفاية في الأقوات، بالإخبار عن وفْرتِها في أوفَى الأوقات، التي يُبتغَى فيها تحصيلُها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 28.

عِلَّة فصل جملة: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ عن سابقتها:

جملة ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، جيء به لتعظيم شأنِ الجنّة وتعيينِ أهلِها[1]، وتهييجًا للالتفات إليها.

نُكْتَةُ التّعبير باسم الإشارة للبعيد:

أفاد اسمُ الإشارة في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ﴾ زيادةَ التّمييز؛ تنويهًا بشأن الجنّة في بُعْد منزلتِها، وعُلوِّ رتبتِها[2].

معنى (أل) في قوله: ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾:

جنّة الدّنيا أن تُؤمِن بجنّة الآخرة رأيَ العين

(أل) في ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ للعهد الحضوريّ؛ لوقوع التّعريف بعد اسم الإشارة، ولعلّ في هذا نُكْتَةً إضافيّة في دلالة الإشارة إلى الجنّة في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾، فنزّلها منزلةَ الحاضر الذي يُشارُ إليه بالحِسّ؛ لأنّهم وصلوا إلى عين اليقين في الإيمان بها، فصاروا كأنّهم يشهدونها رأي العين.

بلاغة القصر بتعريف طرفي الإسناد:

الجنّة نعيمٌ كاملٌ لا خوفَ مِن فواته

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ فيه تعريفُ رُكني الإسناد - المبتدأ والخبر - بالإشارة و(أل)، وهو مِن طرائق القَصْر، كأنّه قيل: تلك المُشار إليها بالوعد الثّابت والخُلدِ الدّائم والوصف السّابق هي الجنّة على الحقيقة المُستغرِقة لخصائص صفات الجنس، أي: هذه هي الجنّة الكاملةُ الحقيقيّة لا غيرُها، ولم يأتِ بضمير الفصل، فيقال: (تلك هي الجنّة)؛ لأنّ الجنّة سبق ذكرُها في الآيات المتقدّمة، فلا تحتاج لمزيد تعيينٍ أو تعريف، وإنما كان كذلك؛ ليتأسَّسَ عليه الإنباءُ، بأن مقام التقوى مِن أكمل المقامات وأعلاها، وهو المقام الذي يستأهل صاحبُه تلك الجنّة الكاملةَ الحقيقيّة.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 429، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 273، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.

نُكْتَةُ التّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّتِي﴾:

تعريف الصّلة يُؤذِنُ بكمالِ المُعرَّف

الموصول في قوله: ﴿ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ﴾ توُسِّلَ به إلى وصف المعرفة بالجملة، فأُجْرِيَ وصْفُ الجنّةِ بالموصول وصِلَتِه؛ تنويهًا بالمتقين وأنّهم أهل الجنّة، كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: 133][1]، وتمييزًا للموصوف أكملَ تمييز بزيادة تعيينه، فالجنّة هي دار الجزاء لا غيرُها، ولذا فالموصول ﴿ٱلَّتِي﴾ أفاد العهدَ والعِلْمَ.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع: ﴿نُورِثُ﴾:

تورّثُ الجنّةُ بسبب الأعمال لا بسبب الأنساب

وصْفُ الجنّةِ بأنّها مورَّثَة في قوله: ﴿ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾؛ للدّلالة على أنّها مِنْحةٌ سهلةٌ تؤولُ إليهم كما يؤولُ الإرث، لا نَكَدَ فيه ولا كَدَر، وللدّلالة على أنّها حاصلةٌ لهم بسببٍ، كحصولِ الإرث بسببِه، فهي حاصلةٌ لهم بسبب أعمالهم، فهم يستحقّونها، وهي مِن عوائد الأعمال، كما الإرثُ مِن عوائد الأنساب، فاستبدلَ الأنسابَ بالأعمال؛ لأنّه لا أنسابَ بينَهم يومئذٍ، ولا ينفع مالٌ ولا بنون، وأبقى العوائدَ والجوائزَ المترتّبةَ عليها كالإرث، كما كان الميراثُ يترتّب على أسبابه في الدّنيا، فدَلّ لفظُ الإرث على جانب الفضل والاستحقاق معًا.

وفي التّعبير بـ﴿نُورِثُ﴾ لطيفة؛ وهي تشابُه العباد الذين قيلت في حقّهم هذه الآية؛ لأنّ لفظ: ﴿عِبَادِنَا﴾ يدخلُ فيه السّلفُ الصّالح، والخَلَف الصّالح أيضًا، وكأنّ إرثَ الخَلَفِ للجنّة إرثٌ لهم عن سَلَفهم؛ فقد كان ذلك الإرثُ مِن شأن سَلَفهم، وبالجملة فهذا التعبيرُ يوحي بالتقاء الخلَف الصّالح بالسّلف الصّالح.

وأوثر لفظ: ﴿نُورِثُ﴾ دون غيره مِن ألفاظ التّمليك كالبيع والهبة؛ لأنّه أتمّ أنواعِ التّمليك مِن حيثُ إنّه لا يُعْقَب بفسخٍ ولا استرجاعٍ ولا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.

إبطال، أو لأنّه انتقالٌ كالميراث، فيورّثُ المتقون مِنَ الجنّة المساكنَ التي كانت لأهل النَّار لو آمنوا، فيرثونها عنهم[1].

وجاء بالفعل مضارعًا للدّلالة على الاستقبال والاستمرار، والتّجدّد لأنّه عطاءٌ يتكرّر بعَددِ مُستحقّيه.

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿نُورِثُ﴾:

إبـقـاءُ الجـنّـة لمستحقّيها كما تُستَبقَى التَّرِكَة لوارثيها

استُعيرَ لفظ ﴿نُورِثُ﴾ للعوائد المُدّخرة لمُستحقّيها، تشبيهًا بمالِ المَوروثِ الذي يصير إلى وارثه آخرَ الأمر، والاستعارةُ تصريحيّةٌ تبعيّة، أو التّعبيرُ بالإيراث مجازٌ مرسلٌ أُريدَ به الإبقاءُ، علاقتُه اللّازميّة، أي: نُبْقيها لعبادنا، فأَطْلَق الإيراثَ وأراد لازمَه، وهو البقاء[2]، وعلى كلٍّ ففي اصطفائه إضفاءُ النفاسة والعراقة والشرف على ما أُطْلِق عليه؛ تفخيمًا له وتعظيمًا.

معنى ﴿مِنْ﴾:

النَّاسُ فريقٌ في الجنّة وفريقٌ في السّعير

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ للتّبعيض، أي: نورثُ بعضَ عبادنا لا جميعَهم، وهو الذي كان متّصفًا بالتّقوى منهم، وهذا تخصيص ذو إبلاغ عليٍّ؛ مِن شأنه الإبانة عن عُلوّ مقام التّقوى.

دلالةُ إضافة ﴿عِبَادِنَا﴾ لنون العَظَمة:

وصْفُ العبوديّة أشرفُ أوصافِ الإنسان

إضافة ﴿عِبَادِنَا﴾ لنون العَظَمة في مقام المكافأة والجزاء، زيادةٌ في التّشريف والإكرام، وإيقاعٌ للمُكافأةِ على أتمّ وجوهها؛ لأنّ إضافتَهم لضمير الجلالة المُعَظّم فيه تعظيمٌ لهم، وإضافةٌ وزيادةٌ في إكرامهم، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم مُختارون للّه، وأنّ وصْف العبوديّة هو خيرُ وصْفٍ يُنعَتُ به الإنسان، بدليل إضافة المُتّصفين به لضمير الجلالة، وفي هذه الإضافة تمهيدٌ لمجيء قوله: ﴿تَقِيًّا﴾؛ لأنّها تعني أنّ هؤلاء العِباد لا ينكفّون عنِ استحضار جلالِ اللّه وجمالِه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 430.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 430، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 138.

استحضارًا قويًّا؛ مِمَّا حقَّقَ لهم التّقوى، وكان سببًا في رسوخهم وعَراقتهم فيها؛ على ما يُفْهِمُه التّعبيرُ بمادة الكون: ﴿كَانَ﴾، ومَن كان تقيًّا كان قليلًا، وكان غريبًا، خصوصًا في الزّمان والمكان الذي تكون فيه نغمةُ تضييعِ الصّلاة واتّباع الشّهوات نغمةً جماعيَّةً.

نُكْتَةُ تقديم شِبه الجملة على متعلّق الفعل:

تقديم شِبه الجملة: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ على متعلّق الفعل، فلم يقل: (نورث من كان تقيًّا من عبادنا)؛ مُراعاةً للفاصلة ألَّا تنخرم، وتقديمًا للعامّ على الخاصّ، فإنّ وصْف العبوديّة أعمُّ وأسبقُ مِن وصف التّقوى، وإشارةً إلى أنّ في التّقوى جانبًا مِن جوانب التّوفيق والاصطفاء تسبق جانبَ اكتسابِ العبد لها، وهي أن يختارَه اللّهُ لعبوديّته، ويَنْظِمَه في سِلْكِ عباده، ولذا أخبر بالجماعة أوّلًا ثمّ بالفرد فيها، وفي تقديم الأعمّ: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ تمكينٌ لخصوصيّة الأخصِّ.

لا تكون تقيًّا حتّى تكون عبدًا خالصًا لله

نُكْتَةُ التّعبير باسم الموصول العامّ ﴿مَن﴾:

جاء التّعبير بالموصول المشترك العامّ في قوله: ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾؛ ليَدْخُلَ فيه المُكلَّفون رجالًا ونساءً، وذلك نظرًا إلى شيء في صلة الموصول، وهو التّقوى، وهذه التّقوى تتعلّق بالشّهوات، وأعظمُ الفتن فتنةُ النّساء.

ليَدْخُلَ المُكلَّفون رجالًا ونساءً، وفتنةُ بني إسرائيل كانت في النّساء

نُكْتَةُ تصديرِ جملةِ الصّلة بفعل الكون الماضي:

جاء التّعبيرُ بفعل الكون الماضي في قوله: ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾؛ ليدلّ على تحقيقه للتّقوى، وأنّها كانت متمكّنةً منه كتمكّن الجِبِلّة والطّبْع[1]، ولعلّ في هذا توسعةً على العاصين، لأنّ التّقوى التي ترسَخ كالطّبْع والغريزة، هي اتّقاء الكفْر بتحقيق أصل الإيمان واليقين في الدّين، فيدخلُ في الوعد كلُّ مَنِ اتقى اللّهَ بتحقيق أصل إيمانه، فضلًا عمّن حقّق كمالَ التّقوى باتّقاء الكبائر والمآثِم.

يا سعادةَ مَن وُفِّقَ للتّقوى وطال عُمُرُه فيها ومات عليها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 227.

دلالة التّعبير بصيغة: ﴿تَقِيًّا﴾:

مَن مات مسلِمًا مات تقيًّا

قوله: ﴿تَقِيًّا﴾ على وزن فعيل بمعنى فاعل، صيغة مبالغة، أي: مُتَّقٍ، كثيرُ التّقوى في الحال والقول والعمل، أو صفةٌ مشبّهةٌ، أي: دائمُ التّقوى بلزوم أصل الإيمان، وتحقيقِ اليقين، ولزومِ جانب الاستقامة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

عَدْنٌ ومُستقرّ:

دوامُ الثّبوت وعدمُ التّحوّل

أصل (عدن) يدلّ على الإقامة والثّبوت الذي لا يتحوّل ولا ينقطع، ولذا فهو يفيد التّوطين المُستَمرّ للأشياء داخلَ حيِّزٍ أو محيطٍ ما، ومنه قيل للمعادن كذلك، لأنّها منابتُ الجواهر مِن ذهبٍ وغيره، ولازَمَتْ هذه الصّفةُ الجوهَر حتّى بعد اقتلاعه مِن مَقَرّه ومَعْدِنه، فيُقال: مَعْدَنُ الذّهب ومَعْدَن الحديد؛ للدّلالة على أنّ هذه الجواهر ثابتةٌ على صفتها التي كانت عليها مُذْ كانت في مَعْدِنها، ولذا كان لفظ (عدن) دالًّا على عدم التّحوّل في المكان والمَكين، ولذا اقتصر الوصف به على الجنّة دون النّار، فلم يُقَل: (نار عَدْنٍ) لأنّ أهلها دائمو التّحوّل في الأطوار التي يقتضيها العذابُ، فلا ثُبوتَ فيها على حال، بخلاف أهلِ النّعيم.

وأمَّا المُسْتَقَرّ: فأصلُه يدلّ أيضًا على الثّبوت والإقامة والتّمكّن، إلَّا أنّه لا يَلْزَم عنه عدمُ الانقطاع، فقد يكون إلى حين، وقد يكون إلى دوام، بحسب القرينة وبحسب قَصْدِ المُتَكلِّم، فمِنَ الأوّل: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: 36]، ومن الثّاني: قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: 24]، وقوله: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: 76][1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عدن - قرر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»